التطور المنهجي لتفسير آيات القرآن الكريم
الآية الثانية من سورة الملك نموذجا

اسية السعماري
باحثة بسلك الدكتوراه بجامعة عبد المالك السعدي–تطوان
المغرب

الحمد لله رب العالمين منزل الكتاب، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ هادي الأمة إلى سبل الرشاد، وعلى آله وصحبه ومن رام تفسير كتابه جل جلاله واستخراج الأحكام منه والهدايات والآداب.

أما بعد؛ فإن القرآن الكريم معجزة الله الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان الذي ما فتئ الناس علماؤهم وعوامهم يَقفون على أسراره التي لا تتناهى، ويتناولون آياته العظام بالشرح والتفسير والتأويل والبيان والإفهام، منذ العصر النبوي إلى اليوم. وقد عرف هذا التفسير نوعا من التطور مع تعاقب الزمان سواء على مستوى المنهج أو الموضوعات أو اللغة.

وسيحاول هذا البحث تناول آية من آيِ القرآن المجيدِ بعرض ما ذُكر فيها من تفسيرات العلماء على مَرِّ القرون، مُقَسِّمَا إياها على مراحل أربع، منتقيا من كل مرحلة تفاسير خمسة مختلفة المناهج والاتجاهات، مقارنا فيما بينها، بغية بيان التطور المنهجي لتفسير هذه الآية وأوجه اتفاقهم واختلافهم فيها، والوصول إلى معالم التفسير التي تتسم بها كل مرحلة.

والآية المتناولة بالدرس هي: الآية الثانية من سور الملك، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: 2]، وقد اعتُمد في عرضها على المنهج الاستقرائيّ الجزئي المقارن.

وانتظم هذا البحث في مقدمة وتمهيد وأربعة مطالب، ومحاور وخاتمة.

تم تخصيص التمهيد للتعريف بالسورة بإيجاز، وأُفرد لكل مرحلة مطلبا، ولكل قرنٍ محورا، وفي نهاية كل مطلب تم عقد مقارنة بين تفاسير كل مرحلة، وخُصَّت الخاتمة لِعَقد مقارنة عامة بين هذه المراحل.

تمهيد: التعريف بالسورة

* **اسمها:** سورة الملك، وتسمى –أيضا–: سورة تبارك، وتبارك الملك، والواقية، والمنجية، والمانعة؛ لأنها تقي قارئها عذاب القبر، وتنجيه وتمنعه منه، وفي هذا يتجلى فضلها.
* **نوعها:** هي سورة مكية، من المفصل.
* **عدد آياتها:** ثلاثون آية بالمصحف المدني، وأما بالمكي فثلاثون.
* **ترتيب نزولها:** نزلت بعد سورة «المؤمنون» وقبل سورة «الحاقة»، وهي السابعة والستون في ترتيب المصحف.
* **موضوعها:** تحدثت السورة عن أدلة وحدانية الله عز وجل وعظيم قدرته، وعن مظاهر فضله ورحمته بعباده، كما أنها تحدثت عن أحوال المؤمنين والكافرين يوم القيامة، وأوجَبَتِ التأمل في السماوات والأرض والتدبر فيهما، كما أنها أوردت الحجج الباهرة التي لقنها الله جل جلاله رسولَه ﷺ، حتى يرمي بها في ساحة الكافرين المبطلين[1].

المطلب الأول: مرحلة التأسيس

وهذه هي المرحلة الأولى، ويمكن وَسْمُهَا بمرحلة ما قبل ابن جرير الطبري.

من القرن الأول إلى الثالث، وهي مرحلة الصحابة والتابعين وتابعيهم، وإنما اعتبرت الباحثة ما قبل الطبري مرحلة؛ لأن التفسير لم يستقل بداية بنفسه، بل كان مُضَمَّنا في أجزاء حديثية، وحتى لما استقل، لم يكُ تفسيرا بمعناه الموسوعي، فلم يكن متناولا اللغةَ والنحو والبلاغة والبيان، ولا القراءات، ولا إيراد الخلافات، وتم انتقاء خمسة مفسرين لتمثيل هذه المرحلة، وهم: ابن عباس (ت:68)، ومقاتل (ت:150هـ)، والفراء اللغوي (ت:207هـ)، والتستري الصوفي (ت:283هـ)، وهود بن محكم الهواري الخارجي (ت:299هـ) –رحمهم الله أجمعين–.

المحور الأول: القرن الأول

لم يُعثر على تفسير للآية في القرن الأول عدا قولةٍ أُثرت عن ابن عباس τ، وسبب ذلك: أن ما ورد من تفسيرات لآي القرآن في هذا القرن يُعد نزرا قليلا، ومَرَدُّه إلى أن الصحابة كانوا أرباب اللغة والبيان، وعايشوا الوحي وعاينوا تنزيله؛ فكانوا يفهمونه بمقتضى سليقتهم ولا يحتاجون إلى شرحه، ناهيك عن أنهم تَرَبَّوْا في مدرسة رسول الله ﷺ الذي كان بمثابة قرآن يمشي على الأرض؛ فيرونه يطبق تفاصيله تطبيقا عمليا، أما في القرن الثاني، ومع توسع الرقعة الإسلامية، واختلاط اللسان العربي بالعجمي بدأت تتزايد محاولات تفسير القرآن حتى يتيسر للجميع فهمه، إلى أن استقل بصفته عِلْماً.

يقول ابن عباس τ في تفسير هذه الآية: "يريد الموت في الدنيا والحياة في الآخرة، **وأيكم أحسن عملا**، أي: أتم للفريضة، **وهو العزيز**: في ملكه، في نقمته لمن عصاه، **الغفور** لذنوب المؤمنين"[2]. ويظهر أن ابنَ عباس بين معنى الآية من خلال شرح مفرداتها.

(1) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط. دار الكتب المصرية بالقاهرة، الطبعة الثانية، 1964م، 205/18، والتحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ط. الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، 313/18.

(2) هكذا نقله عنه مقاتل في تفسيره، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، ط. دار إحياء التراث، بيروت، 389/4، والبغوي عن عطاء في تفسيره معالم التنزيل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط. دار إحياء التراث العربي ببيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ، 124/5.

المحور الثاني: القرن الثاني

يقول مقاتل مفسرا هذه الآية: "**الذي خلق الموت والحياة**، فيميت الأحياء ويحيي الموتى من نطفة، ثم من علقة، ثم ينفخ فيه الروح، فيصير حيا، وقوله تعالى: **ليبلوكم**، ليختبركم بها **أيكم أحسن عملا**"[3]، ثم أورد سندا بصيغة التحديث إلى ابن عباس، وشرح معنى **أيكم** وما بعدها –وهو عين الكلام الذي ذكرته في تفسير ابن عباس–.

وتستنتج من تفسير مقاتل للآية أمور:

الأول: أنه اعتنى بذكر الإسناد بصيغة "حدثنا فلان عن فلان" –كما هو صنيع المحدثين– فيما نقله عن غيره.

الثاني: أنه اعتنى بشرح مفردات الآية، سواء ما يراه هو أو عزاه إلى ابن عباس: ليبلوكم – أحسن عملا – العزيز – الغفور.

الثالث: حضور السند الروائي: –أعني: النقلَ عن الصحابة–.

الرابع: أنه شرح معنى الآية من خلال بيان مدلول مفرداتها.

المحور الثالث: القرن الثالث

أما يحيى بن زياد الفراء اللغوي فقد بدا الطابع اللغوي واضحا من خلال تفسيره للآية، إذ ما تطرق لبيان مفرداتها ولا إلى معناها، وإنما اقتصر على قوله تعالى: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا) من خلال مناقشة مسألتين: هل أوقع "البلوى" على كلمة "أي" أم لا؟ وهل أضمر فعلا أم لا؟ فأجاب على ذلك، وذكر تنظيرا للمسألة[4].

وأما التستري[5] فقد استفاض في تفسير الآية، ففسر الموت في الدنيا بالمعصية، والحياة في الآخرة بالطاعة، واستدل على ذلك بأثرين دالين على أن الله أمات الإنسان لمعصيته، وألا موت في الآخرة، ولم يأت لهما بإسناد.

وأما قوله تعالى: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا) ففسرها بتفسيرين:

الأول: أحسن العمل: أصوبه –بأن يكون موافقا للكتاب والسنة–، وأخلصه –بأن يكون لله بإرادة القلب–.

الثاني: أحسن العمل: ما كان عن توكل ورضا، ثم بين معنى التوكل.

وأما قوله تعالى: (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) فقال فيه: "يعني: المنيع في حكمه، الحكيم في تدبيره بخلقه، الغفور للنقصان والخلل الذي يظهر في طاعات عباده"[6].

ومما يستخلص من تفسيره هذا ما يلي:

- حضور السند الروائي من خلال إيراده أثرين عن رسول الله ﷺ، مع ذكره السند – فلان عن فلان–، فضلا عن التفسير الذي أورده.
- شرح الآية من خلال بيان مدلول ألفاظها.

وأما هود الهواري فقد ذكر في هذه الآية حديثا عن الأعمش عن أبي سفيان عن أبي سعيد الخذري عن رسول الله ﷺ لُبابُه: أن الموت يأتي في صورة كبش يوم القيامة فيُذبح فيكتب لأهل الجنة والنار الخلود.

---

(3) تفسير مقاتل بن سليمان 389/4.

(4) معاني القرآن، أبو زكريا الفراء، حققه: جماعة من الباحثين، ط. دار المصرية للتأليف والترجمة، الطبعة الأولى، 169/3.

(5) والتفسير الذي وصلنا عنه ما كتبه بيده، بل هي أقوال أثرت عنه جمها أبو بكر محمد البلدي.

(6) تفسير التستري، أبو محمد سهل التستري، جمع: أبو بكر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط. منشورات محمد علي بيضون، الطبعة الأولى، 1432هـ، ص: 172.

وفسر **ليبلوكم** ب: ليختبركم، و**العزيز**: في نقمته، و**الغفور**: لمن تاب وآمن[7].

ومن خلال ما تقدم يظهر ما يلي:

- هيمنة طابع بيان مدلول كل لفظ على حدة، دون ربطها بالمعنى العام للآية.
- التركيز على شرح المفردات، دون النظر في اشتقاقاتها وأصلها ووزنها.
- أن إيراد الإسناد كان مستعملا –عن فلان عن فلان–، لكن ليس بكثرة.
- حضور السند الروائي في شرح الآية: إيرادهم أقوال النبي ﷺ والصحابة المفسرة لها.
- غياب استخلاص الهدايات من الآية ومقاصدها، وبيان سنة الله في خلقه منها.
- عدم حضور الطابع المذهبي في الآية، فلا التستري الصوفي وظف الجانب الروحي فيها، ولا هود الهواري تطرق للجانب العقدي.
- عدم ربط الآية بالتي قبلها ولا بالسياق العام للسورة.
- تشابه التفسيرات إلى حد كبير وعدم خروجها عن معنى واحد يجمعها.

المطلب الثاني: مرحلة التأصيل

وهي المرحلة الثانية، من القرن الرابع إلى نهاية أواخر القرن السادس، وهي مرحلة ما بين الإمام الطبري (ت:310) والإمام الرازي (ت:606)، وقد عرفت هذه المرحلة: التأصيلَ لهذا العلم بجمع ما تناثر من تفسيرات السابقين، والتفنن في التفسير، وأُدخلت فيها أشياء جديدة، كالتطرق للجانب البلاغي من قِبل الزمخشري (ت:538هـ)، والحديث عن القراءات، وأُدخلت الخلافات الفقهية واللغوية.

وقد انتقت الباحثة لتمثيل هذه المرحلة خمسة مفسرين وهم: الإمام الطبري (ت:310هـ)، والزجاج النحوي (ت:311هـ)، وأبو محمد القرطبي (ت:437)، وأبو محمد البغوي (ت:510)، وأبو القاسم الزمخشري المعتزلي (ت:538هـ) –رحمهم الله أجمعين–.

المحور الأول: القرن الرابع

أما الإمام الطبري فقد قال في تفسير الآية: "**الذي خلق الموت والحياة** فأمات من شاء وما شاء، وأحيا من أراد وما أراد إلى أجل معلوم، **ليبلوكم أيكم أحسن عملا** يقول: ليختبركم فينظر أيكم له أيها الناس أطوع، وإلى طلب رضاه أسرع"[8]، ثم أورد سندا بصيغة التحديث عن عن مقاتل عن رسول الله ﷺ أن الله أذل ابن آدم بالموت، وآخر عن قتادة يقول عين الكلام ويزيد: "الدنيا دار فناء والآخرة دار بقاء"، ثم فسر **العزيز الغفور** بنفس ما ذكره هود الهواري[9].

ولا يخرج ما ذكره الإمام الطبري عمن سبقه في طريقة تفسير الآية، بَيْدَ أن المعنى صار معه أجلى وأوضح، واستعمل الإسناد في نقل الآثار لإيضاح بعض المعاني، مما يؤكد ربطه بين التفسير وسنة رسول الله ﷺ، ولم يعمل قوانين العربية كما هو معروف عنه، ويمكن إرجاع ذلك إلى طبيعة الآية ووضوح معناها وجلائها.

وأما الإمام الزجاج فإنه ما تناول من تفسير الآية إلا قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، إذ قال: "خلق لكم الحياة ليختبركم فيها وخلق الموت ليبعثكم ويجازيكم بأعمالكم"[10]، ثم ساق ما ذكره الكلبي من أن الموت خلق في صورة كبش أملح، وساق الحديث دون إسناد.

---

(7) تفسير كتاب الله العزيز، هود بن محكم الهواري، تحقيق: بالحاج بن سعيد شريفي، ط. دار الغرب الإسلامي، لبنان، الطبعة الأولى، 1990م، 386/4.

(8) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2000م، 505/23.

(9) المصدر نفسه 505/23.

(10) معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج، تحقيق: عبد الجليل شلبي، ط. عالم الكتب ببيروت، الطبعة الأولى،1988م، 197/5.

وركز غاية التركيز على مسألة نحوية، وهي: هل متعلق "أي" ليبلوكم أم فعل مضمر؟ فأجاب عليها واستدل لها[11]. وهذا طبيعي فالكتاب يغلب عليه طابع تناول الآيات نحويا، لكن يعقب عليه عدم ذكره الإسناد للحديث، وتركه التصريح بكونه حديثا، لكنه ختم ذلك بقوله: "والله أعلم بصحة ذلك".

المحور الثاني: قرن الخامس

هذا القرنُ عرف بلوغَ العلوم الشرعية والعربية أوجَها وذروتَها، الشيء الذي انعكس على التفسير إيجابا؛ فعرف ازدهارا لا مثيل له، يظهر لنا هذا في تفسير أبي محمد القرطبي في كتابه "الهداية إلى بلوغ النهاية" إذ يقول: "ثم قال تعالى: **الذي خَلَقَ الموت والحياة**، أي: خلق الموتَ ليميت الأحياء، وخلق الحياة ليحيي الموتى. وفعل ذلك ليختبركم في حياتكم وطول إقامتكم في الدنيا، **أيكم أحسن عملاً**، فيجازيه على ذلك في الآخرة. وقد علم تعالى كل ما هم عاملون، وعلم الطائع والعاصي قبل خلقهم، لكن المجازاة إنما تقع بعد ظهور الأعمال، لا يجازى أحد بعلم الله فيه دون ظهور عمله. فالمعنى: ليختبر وقوع ذلك منكم على ما سبق في علمه وقضائه. وتقديره: من خير وشر احتساباً منكم"[12]، ثم ساق قولَ قتادة السابق ذِكرُه دون إسناد.

ويمكن إجمال الملاحَظ على تفسيره هذا فيما يلي:

أولا: أنه لم يتعرض لشرح المفردات لغويا.

ثانيا: حضور السند الروائي –النقل عن رسول الله ﷺ وعن صحابته والتابعين– مع خلو ما يعوزه لهم من إسناد.

ثالثا: أنه ذكر معنى الآية في ألفاظ سلسة.

رابعا: أنه زاد مسألة مهمة ما أشار إليها من تقدم ذكرهم، وهي: أن الله عالم بما يفعله الطائع والعاصي قبل خلقهما، لكن لا يجازيهما على ذلك قبل ظهور الفعل منهما.

المحور الثالث: القرن السادس

قد عرف هذا القرن تحولا مبهرا في النسق التفسيري، لما دخلت البلاغة والبيان إلى علم التفسير، وكان هذا تحولا مُهِمّاً ازدان التفسير به.

وإذا ما ذكر القرن السادس انصرف الذهن إلى تفسير الإمام أبي محمد البغوي؛ فكتابه يعتبر درة نفيسة جمعت شتات ما تقدم، وهذا جلي حتى في تفسيره للآيَ، فقد فسرها بمثل ما فسرها به السابقون، وأكثر في النقل عنهم.

ففسر قوله تعالى: **الذي خلق الموت والحياة** بما ذكره ابن عباس وقتادة، بنقله عنهما دون إسناد. ثم ذكر نكتة تقديمه تعالى الموت على الحياة، وحكى فيها قولين:

الأول: قدم الموت على الحياة؛ لأنه إلى القهر أقرب.

الثاني: لأنه أقدم، وعلل ذلك.

ثم نقل حديث "خلق الموت على صورة كبش" وعزاه إلى ابن عباس، ثم أتبعه بحديث لابن عمر مرفوعا.

ثم فسر **أحسن العمل**: بأصوبه وأخلصه، وعزاه إلى الفضيل بن عياض.

ثم تحدث عن مسألة: هل أوقعت البلوى على "أي" أم لا، وحكى فيها قول الفراء.

---

(11) المصدر نفسه 197/5.

(12) الهداية إلى بلوغ النهاية، أبو محمد القرطبي، تحقيق: مجموعة من الباحثين، ط. مجموعة بحوث الكتاب والسنة، الشارقة، الطبعة الأولى، 2008م، 7591/12.

وقد ختم شرح الآية ببيان معنى **الغفور الرحيم**، ولم يخرج عما ذكره السابقون[13].

ويُستخلص من تفسيره هذا ما يلي:

- اعتنائه بالنقل عن رسول الله وعن الصحابة في تفسير الآية، مع خلو كلامه من الأسانيد فيما ينقله.
- عدم تطرقه لبيان الكلمات اللغوية.
- اهتمامه بالنكت البلاغية والقضايا النحوية.
- كثرة النقول عن السابقين.
- خلو كلامه من الحديث عن الهدايات الربانية.

أما الإمام الزمخشري فقد أطال النفس فيها. فصَدَّرَ تفسيرها ببيان معنى الحياة: قيل: ما يصح بوجوده إحساس، وقيل: ما يوجب كون الشيء حيا، والموت عدم ذلك.

ثم قال: "ومعنى **خلق الموت والحياة**: إيجاد ذلك المصحح وإعدامه. والمعنى: خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون **لِيَبْلُوَكُمْ**"[14].

ثم تطرق لقوله: **ليبلوكم**، وَعَدَّهُ من باب استعارة لفظ البلاء للدلالة على الاختبار، ونَظَّر له بأمثلة، فيكون الزمخشري أولَ من التفت إلى هذا المعنى.

ثم أتبع ذلك بذكره إيرادات لها علاقة بتعلق العمل الحسنِ بالبلوى وأجاب عليها.

ثم بين معنى قوله تعالى: **أحسن عملا**، وذكر فيها قولين كلاهُما أوردهما التستري، وصوب الثاني، واستدل على ذلك بقول رسول الله ﷺ -المتقدم ذكره- دون أن يسوق له إسنادا-.

ثم بين المعنى العامَ للآية بقوله: "والمراد: أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل وتستمكنون منه، وسلط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح؛ لأن وراءه البعث والجزاء الذي لا بد منه"[15].

ثم أشار إلى نكتة تقديمه تعالى الموت على الحياة في الآية، وهي: أنه أقوى في بعث الإنسان على العمل، ولأنه الغرض الأهم في سوق الآية.

ثم ختمها ببيان معنى "**العزيز الغفور**" ولم يخرج عما ذكره السابقون[16].

وانطلاقا من تفسيره هذا يمكن استخلاص ما يلي:

- إطالته النفس في التفسير أكثر ممن سبق بذكره مسائل مختلفة.
- قله اعتماده على أقوال رسول الله ﷺ وصحابته في تفسير الآية.
- ترجيحه بين الأقوال، وهو صنيعه في بيان معنى "أحسن".
- تركيزه على شرح المفردات -معنى الحياة والموت والبلاء-.
- عنايته بالجانب النحوي -تعلق البلاء بما بعده-، والبلاغي -إطلاق البلاء على الاختبار، وتقديم الموت على الحياة-.
- ذكره المعنى الإجمالي للآية.

---

(13) معالم التنزيل 5/124-125.

(14) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم الزمخشري، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ، 4/575.

(15) المصدر نفسه 4/575.

(16) المصدر نفسه 4/575-576.

– عنايته بذكر الأقوال في المسائل –مدلول الحياة ومدلول أحسن–.

– عنايته بالجانب الهدائي في الآية، فأشار إلى هداية تربوية مهمة ألا وهي: هبة الله لنا الحياة لنعمل بها، وابتلاؤنا بالموت لنحسن العمل، فَذِكْرُ الموت في الآية ليس هملا، وإنما لتنبيهنا على أن لسنا مخلدين في دنيانا لنعمل ما نشاء.

انطلاقا من تفسيرات هذه الآية يمكن القول:

– إن تفسير الآية بدأ يزداد طولا وعمقا مع توالي القرون، فالقضايا المتناولة في القرن الثاني ليست عينَ ما تم ذكره في القرنين الخامس والسادس.

– اتسمت هذه المرحلة عموما بالاعتناء بالجانب اللغوي والنحوي والبلاغي أكثر من المعاني.

– ذكر الأسانيد عن المفسرين الأوائل للآية كاد ينعدم بعد الإمام الطبري، أما السند عن رسول الله ﷺ وعن صحابته في تفسير الآية فقد ظل حاضرا في هذه المرحلة.

– كثرة النقل عن السابقين، وعدم خروج تفسير الآية عما ذكروه.

– افتقار هذه التفسيرات للجانب الهدائي.

المطلب الثالث: مرحلة التوسع في التفسير

وهي المرحلة الثالثة، من بداية القرن السابع إلى أواخر القرن الثاني عشر، بداية مع الإمام الرازي الذي أدخل الجانب الفلسفي –إن صح التعبير–، ولم يقتصر على ما كان يذكره السابقون في التفسير، بل جاء بأمور جديدة، بالإضافة إلى تشعبه في إيراد الخلافات العقدية في تفسير الآيات الدالة عليها، وبهذا يمكن أن اعتباره مرحلة مفصلية من مراحل علم التفسير.

وقد تم انتقاء خمسة مفسرين لهذه المرحلة، وهم: الإمام فخر الدين الرازي (ت:606)، وأبو حيان الأندلسي (ت:745هـ)، وأبو الحسن البقاعي (ت:885هـ)، وأبو السعود (ت:982هـ)، وعبد العلي العروسي الحويزي (ت:1112) –رحمهم الله أجمعين–.

المحور الأول: القرن السابع

اعتنى الإمام الرازي غاية العناية بمضامين الآيات، خاصة ما يتعلق بالعقيدة، وبالجانب المنهجي، فتجده لا يذكر الآيات كيفما اتفق، بل يقسمها إلى مسائل، وهو ما فعله أيضا مع هذه الآية –محل الدراسة–؛ فقد قسمها إلى مسائل ثلاث، تناول في المسألة الأولى معنى الحياة والموت، فقال في الحياة: "الصفة التي يكون الموصوف بها بحيث يصح أن يعلم ويقدر"، أما الموت فقد ذكر فيه خلافا، فقيل: عدم صفة الحياة، وقيل: صفة وجودية مضادة للحياة، وذكر حجة أصحاب هذا القول. ثم ساق حديث ابن عباس –السابق ذكرُه بأن الموت يأتي على صورة كبش–، ثم بين أنه إنما قاله على سبيل التمثيل والتصوير فقط، والأرجح عنده القولُ الثاني.

أما المسألة الثانية فقد خصصها لبيان سبب تقديم الموت على الحياة في الذِّكر، فقيل: لأن الموت هو الأول؛ لأن أصل الإنسان نطفة، وقيل: لأن الموت في الدنيا والحياة في الآخرة، وقيل: لأن الموت أدعى إلى العمل، وقيل: غير ذلك. وعزا أغلب الأقوال لأصحابها.

وأما المسألة الثالثة فقد خصصها لهداية ربانية تربوية إيمانية، ألا وهي: التنبيهُ على فائدة الحياة والموت، ومآلُ كل منهما، وضرورةُ الاتعاظ بالموت بالتهيؤ له، وفيها يقول: "اعلم أن الحياة هي الأصل في النعم، ولولاها لم يتنعم أحد في الدنيا، وهي الأصل أيضا في نعم الآخرة ، ولولاها لم يثبت الثواب الدائم، والموت أيضا نعمة...، كيف لا وهو الفاصل بين حال التكليف وحال المجازاة، وهو نعمة من هذا الوجه، قال عليه الصلاة والسلام: «أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَازِمِ اللَّذَّاتِ» وقال لقوم : «لَوْ أَكْثَرْتُمْ ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَّاتِ لَشَغَلَكُمْ عَمَّا أَرَى»، وسأل عليه الصلاة والسلام عن رجل فأثنوا عليه ، فقال : «كَيْفَ ذِكْرُهُ الْمَوْتَ؟» قالوا: قليل، قال: «فَلَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ»"[17].

(17) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1420هـ، 580/30.

من هنا ندرك أن العلماء تفطنوا إلى أنه مع تباعد عصر رسول الله ﷺ بدأ الناس يتقاعسون أن إدراك كُنْهِ معاني القرآن الكريم، ولا محيد إلا تذكير الناس بذلك، بخلاف الأوائل فقد كانوا مستحضرين لهذه المعاني، ونلاحظ أن إيراد سند الحديث عن رسول الله ﷺ ظل حاضرا.

المحور الثاني: القرن الثامن

لم يخرج أبو حيان الأندلسي صاحب "البحر المحيط" في تفسيره للآية عما ذكره السابقون، فقد أتى بنفس المسائل التي تحدثوا عنها، وبنفس الأقوال التي ذكروها.

فتحدث عن مفهوم الموت، وسببِ إطلاق البلوى على الاختبار، ومعنى "**أحسن عملا**".

ثم تطرق لإعرابها، ومتعلق "**أي**"، ونقل قول الزمخشري في ذلك، وعلق عليه[18].

وقد نقل تفسيرا لقوله تعالى: **الذي خلق الموت والحياة**، بصيغة المبني للنائب، يقول: "وقيل: كنى بالموت عن الدنيا، إذ هو واقع فيها، وعن الآخرة بالحياة من حيث لا موت فيها، فكأنه قال: هو الذي خلق الدنيا والآخرة، وصفهما بالمصدرين، وقدّم الموت لأنه أهيب في النفوس"[19].

المحور الثالث: القرن التاسع

واختير لهذا القرن تفسير إبراهيم بن عمر البقاعي والذي يعتبر أول من صنف تفسيرا أفرده للحديث عن مناسبة السور والآيات فيما بينها؛ فيعتبر بداية جديدة للتطرق لمقاصد الآيات وغاياتها.

وقد حاول في هذه الآية الإتيان بمعان جديدة لم يوقف عليها مع من تقدمه.

قال في بيان سبب تقديم الموت وربطه بالموضوع العام للسورة: "ولما كان الخوف من إيقاع المؤلم أدعى إلى الخضوع؛ لأنه أدل على الملك، مع أن الأصل في الأشياء العدم قدم قوله: **الموت**"[20].

ثم فسر **الموتَ** بأنه: زوال الحياة عن الحي بجعله جمادا كأن لم يك به حركة، و**الحياة** بأنها المعنى الذي يقدر الجماد به على التقلب بنفسه وبالإرادة، وأورد آثارا عن ابن عباس –دون أن يورد لها إسنادا– يؤكد بها معنى ما قال.

ثم ربط المناسبة بين ما تقدم وبين **ليبلوكم** بقوله: "لما ذكر الدال على القدرة أتبعه غايته، وهو الحكم الذي هو خاصة الملوك فقال تعالى: **ليبلوكم**، أي يعاملكم وهو أعلم بكم من أنفسكم معاملةَ المختبر لإظهار ما عندكم من العمل بالاختيار **أيكم أحسن عملاً**، أي: من جهة العمل أي عمله أحسن من عمل غيره"[21].

ثم أشار إلى ملمح مهم ينبغي ألا يُغفله الإنسان، وهو نكتة إسناد الحسن إلى الإنسان، ويمكن اعتبار هذا الملمح هداية تربوية إذ قال: "وعبارة القرآن في إسناد الحسن إلى الإنسان تدل على أن من كان عمله أحسن كان هو أحسن، ولو أنه أبشع الناس منظراً، ومن كان عمله أسوأ كان بخلاف ذلك، والحسن إنما يدرك بالشرع، فما حسنه الشرع فهو الحسن وما قبحه فهو القبيح"[22]، وقد ختم كلامه هذا بمعنى الحسن والقبح عند أهل السنة.

---

(18) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: صدقي محمد جميل، ط. دار الفكر، بيروت، 1420هـ، 22/10.

(19) المصدر نفسه 22/10.

(20) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم البقاعي، ط. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 219/20.

(21) المصدر نفسه 219/20.

(22) المصدر نفسه 223/20.

ثم أشار إلى هداية إيمانية أخرى تستبصر بها القلوب وتحتكم لها العقول فقال: "فهذه الآية مشتملة على وجود المقتضي للسعادة وانتفاء المانع منها، ووجود المقتضي إعداد وإرشاد، فالإعداد إعانته سبحانه للعبد بإعداده لقبول السعادة...والإرشاد أخذه بالناصية إلى ما أعد له... وانتفاء المانع هو الموقف عن ذلك وهو دفع المشوشات والمفسدات...ومن تأمل الآية عرف أنه ما خلق لا ليتميز جوهره من صدق غيره أو صدقه من جوهر غيره، وأن الدنيا مزروعة، وأن الآخرة محصدة، فيصير من نفسه على بصيرة، وثارت إرادته لما خلق له تارة بالنظر إلى جمال ربه من حسن وإحسان، وأخرى إلى جلاله من قدرة وإمكان، وتارة بالنظر لنفسه بالشفقة عليها من خزي الحرمان، فيجتهد في رضا ربه وصلاح نفسه خوفاً من عاقبة هذه البلوى"[23].

ثم ربط ما سبق بقوله تعالى: **وهو العزيز الغفور**، بإيراده معنى بديعا زائد على ما سبق من تفسيرات العلماء التي تواترت عن بعضهم – العزيز في نقمته الغفور لمن تاب–، يقول: "ولما كان لا يغفل الابتلاء منا إلا جاهل بالعواقب وعاجز عن رد المسيء عن إساءته وجعله محسناً من أول نشأته، قال نافياً لذلك عن منيع جنابه بعد أن نفاه بلطيف تدبيره وعظيم أمره في خلق الموت والحياة، ومزيلاً بوصف العزة لما قد يقوله من يكون قوي الهمة: أنا لا أحتاج إلى تعب كبير في الوصول إليه سبحانه بل أصل إليه أي وقت شئت بأيسر سعي، **وهو**: أي: والحال أنه وحده **العزيز**، أي: الذي يصعب الوصول إليه جداً...ولما كان العزيز منا يهلك كل من خالفه إذا علم مخالفته قال مبيناً إمهاله للعصاة مرغباً للمسيء في التوبة، بعد ترهيبه من الإصرار على الحوبة، لأنه قد يكون مزدرئاً لنفسه قائلاً: إن مثلي لا يصلح للخدمة لما لي من الذنوب القاطعة وأين التراب من رب الأرباب، **الغفور** أي: أنه مع ذلك يفعل في محو الذنوب عيناً وأثراً فعل المبالغ في ذلك ويتلقى من أقبل إليه أحسن تلق كما"[24].

وإنما تم إيراد كلامه مع طوله لكونه بديعا فريدا، مبينا المقصدَ من إنزال الآية، مرشدا إلى المغزى التي تدل عليها، وإلى البصائر الربانية. والظاهر أنه لم يأت بتفسيره هذا للربط بين الآيات فحسب، بل حاول الربط حتى بين أجزائها، محاولا إدراك كنهها، واهتم غاية الاهتمام بالهدايات، غير موردٍ كثرة النقول والأقوال، ولا معتنٍ بالنكت البلاغية والنحوية، وإنما ركز أشد التركيز على المعاني الخفية التي تروم الآيات إيصالها للقارئين.

وكلامه لم يك خاليا من شرحه معاني الكلمات، ولا من إيراد ما أثر عن الصحابة مما هو خادم للآية وموضح لمعانيها.

المحور الرابع: القرن العاشر

قال أبو السعود العمادي عند ذكره هذه الآية: "شروعٌ في تفصيل بعض أحكام الملك وآثار القدرة وبيان ابتنائهما على قوانين الحكم والمصالح واستتباعهما لغايات جليلة"[25].

ومن هنا يمكن أن نستشف المناسبة التي تربط بين السورة وهذه الآية، فاسم السورة "الملك"، وهذه الآية بداية التفصيل في بيان شيء من ملك الله وقدرته، وأن ذلك مبني على قوانين حِكَمِه تعالى ومُسْتَتْبِعاً غايات جليلة.

ثم تطرق لكلمة "**الذي**"، وبين أنها اسم موصول بَدَلٌ من الاسم الموصول الأول داخل معه في الحكم.

ثم بين معنى **الموت**، وذكر فيه ثلاثة أقوال لا تخرج عما ذكره من سبق ذِكْرُهُم، ثم رجح أن المراد به: الموت الطارئ، والحياة: ما قبله وما بعده. وبين أن ملاحظتهما معا ادعى على العمل الذي لا يتحقق إلا بالحياة الدنيوية. ثم أشار إلى مُتَعَلَّقِ اللام وهو قوله تعالى: **خلق**، ثم ألتفت إلى معنى مهم، وهو تفسيره قوله تعالى: **أحسن عملا** بالعلم مع العمل، ذلك أن العلم عمل القلب والعمل عمل الجوارح، يقول: "كيف

---

(23) المصدر نفسه 223/20.

(24) المصدر نفسه 223/20.

(25) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود العمادي، ط. دار إحياء التراث العربي، 2/9.

لا ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل الواجبة على العباد آثر ذي أثير، وإنما طريقها النظري التفكر في بدائع صنع الله تعالى والتدبر في آياته المنصوبة في الأنفس والآفاق"[26]. وساق حديثا بصيغة التمريض عن رسول الله ﷺ يستدل به على هذا المعنى.

وهذا الكلام يحمل في طياته هداية عقدية لُبابها: ألا عمل دون علم يحمل المرء على التفكر في آيات الله وسننه المبثوثة في الآفاق.

ثم ختم تفسيره للآية بالحديث عن مسألة تعليق البلوى بأي، وببيان معنى **العزيز الغفور**، ولم يخرج عما قاله من سبقه[27].

وتفسيره هذا عري من ذكر الأسانيد حتى فيما روي عن رسول الله، ومن الإيغال في المدلولات اللغوية، وإنما ركز على النحو وشيء من البلاغة، كما أنه أشار إلى هداية ربانية ينبغي الاستهداء بهديها.

المحور الخامس: القرن الثاني عشر

واختير لهذا القرن تفسير "نور الثقلين" لعبد العلي العروسي الحويزي، والذي يعد من أشهر تفاسير الشيعة، أورد فيها الروايات الواردة عن طريق أهل البيت، لكنه لا يعلق عليها.

وقد أورد في هذه الآية تسعة نقول، بعضها عن أهل البيت وهي منقولة من كتب الشيعة، واعتنى في كل نقل منها بذكر إسناده، فيسوقه كاملا، وبعضها عن رسول الله، ولم يسق لها إسنادا، ولن يتم إيرادها هنا كلها لطولها، وإنما سيشار إلى أهم ما فيها:

أ- أن أبا جعفر قال: "إن الله خلق الحياة قبل الموت، وإذا دخل الموت في الإنسان أو في أي شيء خرجت منه الحياة".

ب- فسر علي بن إبراهيم قوله تعالى: "**الذي خلق الموت والحياة**" فقال: "قَدَّرَهُما، أي: قدر الحياة ثم الموت".

ت- وصف الصادقُ الموت بأنه للإنسان كأطيب ريح يشمه فينعس لطيبه، وللكافر كلسع الأفاعي ولذع العقارب أو أشد...، وذكر وصفا لعلي بن الحسين شبيها بالأول.

ث- عن أبي قتادة أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: "**أيكم أحسن عملا**" فقال: "أيكم أحسن عقلا"، ثم قال: "أتمكم عقلا وأرشدكم خوفا وأحسنكم فيما أمر الله به ونهى عنه نظرا، وإن كان أقلكم تطوعا".

ج- وعن ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: "أيكم أحسن عقلا، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله".

ح- عن الرضا أن المراد بقوله تعالى: "**ليبلوكم أيكم أحسن عملا**" ليبلوكم بتكليف طاعته وعبادته لا على سبيل الامتحان والتجربة؛ لأنه لم يزل عليما بكل شيء"[28].

وانطلاقا مما سبق يمكن القول: إن هذا التفسير اعتنى أساسا بالنقول من كتب الشيعة عن أئمة البيت، ولم يرم فيه صاحبه الاسترشاد بالمعاني ولا استخراجها، وتفسيره خال من بيان المعاني اللغوية، أو الإشارة إلى النكت البلاغية، أو الهدايات الربانية، رغم كونه من المتأخرين.

أما فيما يتعلق بالإسناد فيبدو أنه اعتنى بذكر الأسانيد فيما يتعلق بالنقول عن أئمة الشيعة لا عن رسول الله ﷺ. وأما من حيث المعاني فيبدو أن ما أورد من معان **للموت والحياة** مخالف لما ذكره المفسرون السابقون.

والذي يمكن استنتاجه من التفسير في هذه المرحلة ما يلي:

أ. انعدام الأسانيد بالكلية في الدرس التفسيري بعد المرحلة الثانية، إلا ما وقفنا عليه عند الشيعة؛ لأن هذا صار من اختصاص المحدثين، لكن السند الروائي ظل قائما، ولم تقع قطيعة بين التفسير والسنة.

ب. بروز الاعتناء بالهدايات والمقاصد الربانية أكثر من ذي قبل.

---

(26) المصدر نفسه 2/9.

(27) المصدر نفسه 2/9.

(28) نور الثقلين، عبد العلي بن جمعة العروسي الحويزي، تحقيق: السيد علي عاشور، ط. مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 434/8.

ت. استمرار الاعتناء بعلوم اللغة من نحو وصرف واشتقاق وبلاغة

ث. ظهور علوم جديدة في التفسير، كالتناسب بين الآيات والسور.

ج. عدم الاقتصار على تفسيرات السابقين، والإبداع في الإتيان بمعاني جديدة.

ح. طول التفسيرات الموردة في الآية، وعدم الإيجاز فيها.

خ. كثرة النقل عن العلماء دون ذكر أسمائهم.

المطلب الرابع: مرحلة الإصلاح والتجديد

وهي المرحلة الرابعة، من القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر، بداية مع الألوسي الذي يعتبر حلقة وصل بين القديم والعصر الحديث، فاحتفظ بكل ما سبق، وأضاف ما يتعلق بالجانب الإشاري الذي لم يك داخلا في علم التفسير، ثم جاءت بعده تفاسير اعتنت بالجانب العلمي والإعجازي والهدائي والمقاصدي والفكري والاجتماعي وغير ذلك.

وتم انتقاء خمسة مفسرين لهذه المرحلة وهم: شهاب الدين الألوسي (ت:1270هـ)، وأحمد مصطفى المراغي (ت:1371هـ)، والسيد قطب (ت:1387هـ)، وإبراهيم القطان (ت:1405هـ)، والطبطبائي (ت:1412هـ).

المحور الأول: القرن الثالث عشر

أطال الإمام الألوسي في تفسير هذه الآية، إذ صَدَّرَ الآية بالنقل عن أبي السعود –السابق ذكره–[29]، ثم أتبعها بمسائل كثيرة.

– فأتى بإعراب بعض الكلمات، ككلمة "**الذي**"، فقال: "هو موصول بدل من الموصول المذكور في الآية الأولى، وحكي عن الطربسي أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هو".

– ثم بين مدلول الموت، ولم يخرج عما ذكره من سبقه، لكنه في تقرير كل معنى كان ينسبه إلى مذهب من المذاهب العقدية، فنسب كون الموت صفة وجودية تضاد الحياة إلى غالب أهل السنة، واستدل لهم، وبين أن ما ورد عن ابن عباس من كون الموت يأتي يوم القيامة في صورة كبش والحياة في صورة فرس إما أنه وارد على صفة التمثيل، وإما أنه شبيه بكلام الصوفية الذي لا يعقل ظاهره، ونسب كون الموت أمرا عدميا إلى القدرية وبعض أهل السنة، ورجحه، ثم أجاب عن استدلال الأولين وأطال في ذلك كثيرا، ثم قال بعد ذلك: "وتقدير كونه العدم اللاحق...فيه مزيد عظة وتذكرة وزجر عن ارتكاب المعاصي وحث على حسن العمل، ولذا أكثروا من ذكرها، ذم اللذات والحياة وإن كانت داعية لذلك ضرورة أن من عرف أنها نعمة عظيمة وكان ذا بصيرة عمل شكر الله تعالى عليها، لكنها ليست بمثابة الموت في ذلك، فمن زعم أنها لا داعية فيها أصلاً وإنما ذكرت باعتبار توقف العمل عليها لم يدقق النظر"[30]، وفي كلامه هذا إرشاد إلى أن الله لم يذكر الموت قبل الحياة اعتباطا، وإنما تذكير بأن العيش يعقبه زوال، وحساب بين يدي مالك كل شيء، لنعبد الله على بصيرة.

– ثم بين أن البلاء جاء هنا بمعنى الاختبار من باب الاستعارة، وفَصَّلَ في ذلك.

– **وأحسن العمل**: أصوبه أخلصه –كما فسره أغلب من سبقه–، **والعمل**: شامل عمل القلب والجوارح، ثم أسهب القول في إيراده تعالى صيغة التفضيل "**أحسن**" والمعاني التي تدل عليها. و"**العزيز الغفور**" فسرهما بمثل تفسير من سبقوه[31].

ويُلاحظ إقحامه الخلافات العقدية حتى في بيان مدلولات الألفاظ، والتعمق في المسائل النحوية، وإيراد الخلافات فيها، مع قلة العزو وقلة حضور السند الروائي.

---

(29) يقول: "شروع في تفصيل بعض أحكام الملك وآثار القدرة وبيان ابتنائهما على قوانين الحكم والمصالح واستتباعهما لغايات جليلة، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق علي عبد الباري عطية، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415 هـ، 5/15.

(30) المصدر نفسه 6/15.

(31) المصدر نفسه 5/15-7.

القرن الرابع عشر:

فسر الإمام المراغي الآية معتمدا فيه على منهجية علمية؛ فلم يخلط بين المسائل، وإنما اعتنى بالبداءة بشرح المفردات ثم ذكر المعنى الإجمالي للآيات، ثم أسباب النزول...، وقد أخلى تفسيره من شوائب العلوم الأخرى كما فعل المفسرون الأوائل، فقد صدرها بشرح المفردات، وفيها يقول: "شرح المفردات: **خلق**: أي قدّر، **ليبلوكم**: أي ليختبركم، والمراد ليعاملكم معاملة المختبر لأعمالكم، **أحسن عملا**: أي أخلصه لله، **العزيز**: أي الغالب الذي لا يعجزه عقاب من أساء، **الغفور**: أي كثير المغفرة والستر لذنوب عباده"[32]، ويُلاحظ أنه فسر الكلمات بما تدل عليها لغويا دون التطرق لأي جدال أو خلاف.

ثم شرع في تفسير أجزاء الآية، فقال: "**الذي خلق الموت والحياة**: الذي قدر الموت وقدر الحياة، وجعل لكل منهما مواقيت لا يعلمها إلا هو، **ليبلوكم أيكم أحسن عملا** أي: ليعاملكم معاملة من يختبر حاله، وينظر أيكم أخلص في عمله، فيجازيكم بذلك بحسب تفاوت مراتبكم وأعمالكم، سواء أكانت أعمال القلب أم كانت أعمال الجوارح"[33]. ثم ذكر حديث رسول الله ﷺ «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَقْلًا» وشرحه، ثم قال: "وفيه ترغيب في الطاعات وزجر عن المعاصي كما لا يخفى على ذوي الألباب"[34]، وكلامه هذا دليل على اعتناءه بالهدايات الربانية، والجانب المقاصدي للآيات، فقد استشف من الآية أنها ترغب في الطاعات، وترهب عن المعاصي.

ثم ختم ببيان معنى قوله تعالى: **وهو العزيز الغفور**، وهو عين ما فسره به من قبله، ثم قال: "وقد قرن سبحانه الترهيب بالترغيب في مواضع كثيرة من كتابه...وإثبات العزة والغفران له يتضمن كونه قادرا على كل المقدورات، عالما بكل المعلومات، ليجازي المحسن والمسيء بالثواب والعقاب، ويعلم المطيع من العاصي، فلا يقع خطأ في إيصال الحق إلى من يستحقه، ثوابا كان أو عقابا"[35].

وتفسيره لهذه الآية يتسم بقلة النقل وخلوه من الأسانيد، فليس اعتماده الأساس على ما أثر من الأقوال، ولم يتوغل في المعاني اللغوية، وإنما فسرها بما يدل عليه اللفظ ظاهرا، دون أن يتطرق لأي خلاف فيها، حتى يفهم القارئ معنى الآية دون أن يغرق في دوامة الأقوال، أما من حيث الهدايات؛ فيبدو أن لها حظا من الاهتمام عنده.

وفي نفس الحقبة الزمنية أبدع لنا السيد قطب تفسيرا لآيات القرآن بأسلوب أنيق وراقٍ، مستخرجا منها دُرَرَها التي تبين عن شمولية هذا الدين وهداياته التي يستلهم منها المسلم ما يكون له مفتاحا للنجاة في الدارين، وقد انعكس منهجه السامي هذا على تفسيره لهذه الآية؛ فقد شرحها ببديع القول وحكيمه.

فصدر تفسير الآية ببيان أن من آثار تمكن الله عز وجل المطلق من الملك خلقُه الموت والحياة، والموت عنده شامل السابق للحياة واللاحق لها، والحياة تشمل التي في الدنيا والتي في الآخرة، وبهذا يكون قد جمع بين الخلاف الوارد بين من سبق في تفسيرات الآية.

ثم يشير إلى هداية إيمانية بين فيها المقصد الأسمى من الابتلاء وهو معرفة عظمة الله وعظيم خَلقه ونيل رضى الله عز وجل[36].

ثم جلَّى المعنى الدقيقَ الذي يتبدى للناظر بعد تأمل ونظر، وفيه يقول: "ومن ثم يجيء التعقيب: **وهو العزيز الغفور** ليسكب الطمأنينة في القلب الذي يرعى الله ويخشاه. فالله عزيز غالب ولكنه غفور مسامح. فإذا استيقظ القلب، وشعر أنه هنا الابتلاء والاختبار، وحذر وتوقى، فإن له أن يطمئن إلى غفران الله وأن يقر عندها ويستريح"[37].

---

(32) تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، ط. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأولى، 1365 هـ، 4/29.

(33) المصدر نفسه 5/29.

(34) المصدر نفسه 5/29.

(35) المصدر نفسه 5/29.

(36) في ظلال القرآن، السيد قطب، بدون معلومات النشر، ص: 4238.

(37) المصدر نفسه ص: 4238.

ثم ختم تفسير الآية ببيانه أن الله عز وجل إنما جاء بشريعة سمحة مقصدها إرشاد الخلق للتفطن لغاية وجودهم وتحقيق تكريم الله لهم، لا أنه يريد تعذيبهم وتعنيتهم، وإلى هذا المعنى أشار بقوله: "إن الله في الحقيقة التي يصورها الإسلام لتستقر في القلوب، لا يطارد البشر، ولا يعنتهم، ولا يحب أن يعذبهم، إنما يريد لهم أن يتيقظوا لغاية وجودهم؛ وأن يرتفعوا إلى مستوى حقيقتهم؛ وأن يحققوا تكريم الله لهم بنفخة روحه في هذا الكيان وتفضيله على كثير من خلق، فإذا تم لهم هذا فهناك الرحمة السابغة والعون الكبير والسماحة الواسعة والعفو عن كثير"[38].

وانطلاقا من هذا التفسير البديع يتبدى لنا ظاهرا أن شرحه للآية خالٍ من كثرة النقول والخلافات، وقد أفرغه من المسائل النحوية والبلاغية، وإنما حاول بيانَ المقصد السامي للآيات، وإرشادَ قارئ القرآن إلى الهدايات، حتى المعاني اللغوية للكلمات مل يشر إليها، فهو يدري أن معاني الكلمات واضحة للقارئ، إنما يحتاج إلى من يرشده إلى معانيها المكنونة بين سطورها.

المحور الثاني: القرن الخامس عشر

في هذا القرن تجد العلماء قد اعتنوا بجوانب من التفسير لم تنل حظها الوافر من النظر عند السابقين، كالعناية بالإعجاز العلمي، وبالجانب الاجتماعي والفكري والسياسي والهدائي وغير ذلك، كما أنه ظهرت تفاسير كثيرة رامت تيسير الشروح ما أمكن وإخراجها للعوام في قالب يسهل عليهم فهمها.

من أمثلة ذلك: تفسير إبراهيم القطان الذي وسمه بعنوان: "تيسير التفسير"، يقول في تفسير هذه الآية: "**ليبلوكم**: ليختبركم. ثم أخبر بأنه خلَقَ الموتَ والحياة لغايةٍ أرادها، هي أن يختبركم أيُّكم أصحُّ عملاً، وأخلصُ نيةً، وهو ذو العزةِ الغالبُ الذي لا يُعجزه شيء، الغفورُ لمن أذنبَ ثم تاب، فبابُ التوبة عنده مفتوح دائماً"[39].

وتفسيره هذا جاء في نسق متجانس منسجم واضح لا شائبة غموض فيه، واضح المعاني بَيِّنُ الدلالات.

وتجد بعده الطبطبائي قد أشار إلى معانٍ دقيقة إبان تفسيره الآيةَ، فقد صدرها ببيان مدلول الحياة والموت، وتعلق الخلق بالحياة. فالحياة عنده كون الشيء بحيث يشعر ويريد، والموت عدمه، لكنه يعني –انطلاقا من آي القرآن–: انتقال من نشأة من نشآت الحياة الدنيا إلى نشأة أخرى.

ثم بين أن قوله تعالى: **ليبلوكم أيكم أحسن عملا** هي الغاية من خلقه الموتَ والحياة، **والبلاء**: الامتحان، أي: خلقكم ليمتحنكم من هو أحسن عملا، ثم يجازيكم على ذلك.

وقال عقب ذلك: "وفي الكلام مع ذلك إشارة إلى أن المقصود بالذات من الخلقة هو إيصال الخير من الجزاء حيث ذكر حسن العمل وامتياز من جاء بأحسنه، فالمحسنون عملا هم المقصودون بالخلقة وغيرهم مقصودون لأجلهم"[40]. ثم بين معنى **العزيز الغفور**، وهو: أنه لا غالب له، وأنه مجازٍ من خالفه، كما أنه غافر كثيرا من سيئاتهم في الدينا والآخرة، وقال في ذكر قرن الاسمين ببعضهما: "وفي التذييل بالاسمين مع ذلك تخويف وتطميع على ما يدعو إلى ذلك سياق الدعوة)"[41].

وقد أشار في الختام إلى هداية عقدية على الإنسان التبصر بها، وهي إرشادها إلى وجود البعث والجزاء: "واعلم أن مضمون الآية ليس مجرد دعوى خالية عن الحجة يراد به التلقين كما ربما يتوهم، بل هي مقدمة قريبة من الضرورة – أو هي ضرورية – تستدعي الحكم بضرورة البعث للجزاء، فإن الإنسان المتلبس بهذه الحياة الدنيوية الملحوقة للموت لا يخلو من أن يحصل له وصف حسن العمل أو خلافه، وهو مجهز بحسب الفطرة بما لو لا عروض عارض السوء لساقه إلى حسن العمل... و الوصف الحاصل المترتب على وجود الشيء الساري في أغلب أفراده غاية

---

(38) المصدر نفسه ص: 4238.

(39) تيسير التفسير، إبراهيم القطان، بدون معلومات النشر، 354/3.

(40) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، ط. مؤسسة علي للمطبوعات، لبنان، 365/19.

(41) المصدر نفسه 365/19.

في وجوده مقصودة في إيجاده...ومن المعلوم أيضا أن الصلاح وحسن العمل لو كان مطلوبا لكان مطلوبا لغيره لا لنفسه، والمطلوب بالذات الحياة الطيبة التي لا يشوبها نقص ولا يعرضها لغو ولا تأثيم، فالآية في معنى قوله : ﴿كُلُّ نَفْس ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء:35)"[42].

وتفسيره هذه يوضح أنه لم يجمد على المعاني التي قررها السابقون، وإنما يشرح الآية وفق ما يتبدى له من معان، مركزا على الجانب الهدائي، نابذا الجانب الخلافي الذي اشتهر في المرحلتين الثانية والثالثة.

والملاحظ خلو السند الروائي في تفسير الآية؛ فما أورد أي نقول لا عن رسول الله ﷺ ولا عن صحابته.

وانطلاقا من التفاسير الخمس التي تم إيرادها في هذه المرحلة، يمكن استنتاج ما يلي:

- عدم التطويل في التفسيرات، والإعراض عن إيراد الخلافات.
- عدم الجمود على أقوال السابقين، وتفسير الآيات بطريقة يسهل تناولها.
- وضوح العبارات.
- إحداث قطيعة كلية مع الإسناد، وقلة العناية بالسند الروائي في تفسير الآية.
- قلة النقول.
- عدم الإيغال في إقحام العلوم الأخرى مما لا يخدم الهدف الأساس من الآية.
- بروز العناية بالهدايات الربانية بشكل لافت جدا.

خاتمة:

قبل محاولة عقد مقارنة موجزة بين المراحل الأربع في تفسير الآية، لابد من الإشارة إلى أن الحكم على كل مرحلة بخصائص معينة يحتاج بالضرورة إلى استقراء شبه كامل للآيات وأهم التفاسير فيها، لكنن حاولت الباحثة تتبع تفسير الآية عبر خمسة عشر قرنا محاولة ملاحظة تطوره فيها، وإعطاء صورة تقريبية عن خصائص التفسير في كل مرحلة.

وستتم مقاربة هذه المقارنة من جهتين:

الأولى: من حيث التأصيلُ، والمراد به: اعتماد المفسرين على السند الروائي في تفسير الآية، وكذا عنايتهم بالجانب اللغوي للمفردات.

الثانية: من حيث التنزيلُ، المراد به العناية بالهدايات، سواء العقدية أو النفسية أو التربوية أو الاجتماعية أو الكونية.

أ. **من حيث التأصيلُ**

* أما فيما يتعلق بالسند الروائي فإنا نجده حاضرا طيلة الخمسة عشر قرنا، لكنه بتفاوت، فنجده في المرحلة الأولى حاضرا، لكن ليس بكثرة، مع العناية بالإسناد أثناء النقل، أما في المرحلة الثانية فقد حضر بشكل أكثر من السابق، مع شبه انعدام لإسناد التفسيرات إلى قائليها، أما في الثالثة فقد اختفى الاسناد بالكلية –إلا ما ورد عن الشيعة–، مع بقاء السند الروائي قائما، وأما في المرحلة الأخيرة فنرصد فيها قلة الاعتماد على أقوال رسول الله ﷺ وكذا صحابته في التفسير.

* أما من جهة العناية باللغة فقد ظل قائما طيلة القرون الخمسة عشر، مع بروزه أكثر في المرحلة الثانية والتي بعدها، وضموره في الأخيرة، ومَرَدُّ ذلك –والله أعلم– إلى: كون علوم اللغة قد بلغت أوجها في هاتين المرحلتين؛ فانعكس ذلك على الدرس التفسيري.

الفرع الثاني: من حيث الهداياتُ

[42] المصدر نفسه 366/19.

إن حضور الهدايات الربانية والاهتمام بالمقاصد والسنن الإلهية في الكون لم تعرف حظها من العناية إلا في المرحلة الرابعة، مع ظهور ملامح برزت في المرحلة التي قبلها.

أما في الأولى والتي بعدها فقد كان ذلك ضعيفا جدا، ويحتمل أن يكون مرد ذلك إلى أنهم في القرون الأولى كانوا يستحضرونها ولا حاجة لهم في تدوينها، فقد كانت نسبة التدبر عند قارئ القرآن عالية جدا، لا يحتاج لمن يذكره بهذه الهدايات ويرشده إليها، ثم لما اشتد عود العلوم الشرعية واستوت العلوم اللغوية على سوقها، انصب اهتمام المفسرين إلى توظيفها في تفسير القرآن الكريم، فاستغرقت جل التفاسير، وقل حينها من يتنبه لِكُنْهِ المعاني والمغزى منها.

لكن مع تقدم القرون بدأ المفسرون يرشدون الناس بعد طول بعدهم من زمن الوحي إلى سبر أغوار معاني الآيات واستخلاص الهدايات.

وزاد الأمر بروزا مع المرحلة الثالثة لإلحاح الحاجة عليه، وضرورة استحضاره وتمثُّله.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا رصدنا تحولا حتى على مستوى القضايا والمسائل المتناولة في كل مرحلة؛ ففي المرحلة الأولى وقفنا على بعض التفسيرات لمعاني الآية، مع كل البعد عما يتعلق بالخلافات في إيراد الأقوال، ولا عن التعلق بالمسائل النحوية والبلاغية، لكن في المرحلة الثانية بدأت تظهر ملامح الاهتمام باللغة أكثر –نحوا وصرفا وبلاغة–، وفي الثالثة زاد الاهتمام بها وظهر ما يسمى بالتناسب بين السور والآيات، وبدأت تلوح مظاهر العناية بالهدايات في الأفق، لتبلغ أوجها مع رواد المرحلة الرابعة.

وبهذا ننسف مقولة من قال: لم يترك الأوائل للأواخر شيئا، إذ لكل عصر علماؤه ونبغاؤه، وكم من متأخر فتح الله عليه في الفهم والإدراك مالم يبلغه الأوائل.

وختاما، فما تم ذكره في الحكم على كل مرحلة من هذه المراحل لا يدعو أن يكون مجرد وصف تقريبي انطلاقا من تتبع مراحل تفسير الآية، والله تعالى أعلى وأعلم وأحكم.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع:

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي (ت:982هـ)، ط. دار إحياء التراث العربي.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان التوحيدي (ت:745هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، ط. دار الفكر ببيروت، طبعة 1420هـ.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور التونسي (ت: 1393هـ)، ط. الدار التونسية للنشر بتونس، طبعة 1984م.
- تفسير التستري، أبو محمد سهل بن عبد الله التستري (ت:283)، جمع: أبو بكر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط. منشورات محمد علي بيضون، الطبعة الأولى، 1432هـ.
- تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت: 1371هـ)، ط. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، 1365 هـ.
- تفسير كتاب الله العزيز، هود بن محكم الهواري (ت:299)، تحقيق: بالحاج بن سعيد شريفي، ط. دار الغرب الإسلامي بلبنان، الطبعة الأولى، 1990م.
- تفسير مقاتل بن سليمان: أبو الحسن مقاتل بن سليمان الأزدي (ت:150هـ)، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، ط. دار إحياء التراث، بيروت.
- تفسير نور الثقلين، عبد العلي بن جمعة العروسي الحويزي (ت:)، تحقيق: السيد علي عاشور، ط. مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الأولى.
- جامع البيان في تأويل القرآن، لحمد بن جرير الطبري (ت:310هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2000م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي (671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط. دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1964م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: 1270هـ)، تحقيق علي عبد الباري عطية، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415 هـ.
- في ظلال القرآن، السيد قطب (ت:1387هـ)، بدون معلومات الطبع.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبي القاسم الزمخشري (ت:538)، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن الكريم، أبو محمد البغوي (ت:510)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط. دار إحياء التراث العربي ببيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ.
- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج (ت:311)، تحقيق: عبد الجليل شلبي، ط. عالم الكتب ببيروت، الطبعة الأولى، 1988م.
- معاني القرآن، أبو زكرياء الفراء (ت:207هـ)، حققه: جماعة من الباحثين، ط. دار المصرية للتأليف والترجمة، الطبعة الأولى.
- مفاتيـــــح الغيب، أبو عبد الله فخر الدين الرازي (ت:606هـ)، ط. دار إحياء التراث العربي ببيروت، الطبعة الثالثة، 1420هـ.
- الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، ط. مؤسسة علي للمطبوعات، لبنان.
- الهداية إلى بلوغ النهاية، أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي (ت:437)، تحقيق: مجموعة من الباحثين، ط. مجموعة بحوث الكتاب والسنة بالشارقة، الطبعة الأولى، 2008م.